بعض الإدراكات العربية للعلاقات مع الولايات المتحدة

رضوان السيد *

I

هناك ثلاثُ طرائقِ لبحث أو مقاربةِ العلاقات العربيةِ/الأميركيةِ في العقود الخمسة الماضية: **الطريقة الأولى** هي الطريقة التاريخية والجيواستراتيجية, و**الطريقةُ الثانيةُ** هي طريقةُ الرؤى والنظرات المتبادَلةِ. و**الطريقة الثالثةُ** هي طريقةُ المحطّات أو النقاط والمراحل الفاصلةُ. وينبغي هنا أن أُقدِّم بمُلاحظةٍ تتصل بالإدراك العربي العام للوِلايات المتحدة، فالإدراكُ الغالبُ منذ عقودٍ للولايات المتحدة أنها الدولةُ العُظمى أو الأعظم في المجال العالمي، وهذا الإدراك المستتبُّ والمستقرُّ يعودُ لحقبة ما بعد الحرب العالمية الثانيةِ، عندما بدأت الدولة الأميركية تُمارسُ نفوذاً متعاظماً في منطقة الشرق الأوسط والعالَم، وقد انقضتْ المرحلةُ التي كانت فيها القارةُ الأميركيةُ، وليس الولاياتّ المتحدة وحدها -في نظرِ سكّان المشرق العربي بالذات- أرضَ الفُرَص والهجرة المظفَّرة والغنى السريع، أو لنقُلْ: إنّ نظرةً مزدوجة تطورت تُجاه الولايات المتحدِةِ بعد الستينات من القرن الماضي؛ بحيث ظلّت الهجرةُ إلى الدولة الأميركية مرغوبةً ومستمرة؛ لكنّ الغالبية العُظمى من أهل المنطقة بات يغلبُ على إدراكاتهم تُجاه الدولة الأميركية واقعُ القوة العُظمى وسياساتها في منطقتهم وفي العالم.

فلننظر في إمكانيات وثمرات الطريقة التاريخية/الجيواستراتيجية في مقاربة العلاقات مع الولايات المتحدة من وجهة نظر المثقفين والسياسيين العرب. فمن وجهة نظرٍ تاريخية هناك حقبةُ الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، والتي امتدّت ما بين الخمسينات وأواخر الثمانينات من القرن المُنصرم، والمعروفُ أنّ تلك الحقبة شهدت بداياتُها قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين، وشهدت نهاياتُها الحربَ الأولي على العراق، وفيما بينهما فإنّ تِلك الحقبة ذات المراحل شهدت اصطفافاً عربياً وإسلامياً تحت مظلتي القِطبين، وكانت الأولوية لدى الدولة الأميركية خلالها في منطقتنا -وربما في سائر أنحاء العالم- مُصارعة الشيوعية والاتحاد السوفياتي، في الفكر والعسكر والسياسات، وقد كسب الاتحاد السوفياتي إلى جانبه عدة أنظمةٍ ثوريةٍ عربيةٍ وإسلامية، كما كسبت الولاياتُ المتحدةُ أنظمةً أُخرى من بينها دول الجزيرة العربية وإيران وباكستان، وبعد أواسط السبعينات من القرن الماضي، ورغم حلولِ فترة التعايُش السلمي؛ فإنّ الكفّة بدأت تميلُ لصالح الولايات المحدة؛ حين أقبلت حين جلّ دول العالم العربي، حتّى الأنظمة الثورية فيه على إقامة علاقاتٍ متوازنةٍ بين طرفي المُعادلة؛ بل والانتقال أحياناً إلى الضفة الأميركية. ويرجعُ ذلك إلى عدة عوامل، ربّما كان أهمّها الاستقرار الذي شعرتْ به الأنظمة العربية

الثورية، وعدم القدرة على الاستمرار في مُصارعة إسرائيل، والاعتقاد أنّ الولايات المتحدة تستطيعُ التأثير على الكيان الإسرائيلي، وأخيراً تردُّد السياسات الروسية واضطرابها أحياناً، مع استمرار صرامة السياسات الأميركية وبقائها في خطٍ صراعيٍ متصاعدٍ في منطقتنا على الأقلّ. وخيرُ مثالٍ على ذلك الصراع على أفغانستان بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة منذ أواخر السبعينات من القرن الماضي. ففي ذلك الصراع استخدمت الولاياتُ المتحدةُ الإمكانيات الجديدة للإسلام الثوري، دونما مُعارضةٍ حتى من جانب الأنظمة الثورية العلمانية. وما أن جاءت أواسطُ الثمانينات حتى كانت ثلاثُ دياناتٍ كبرى هي البروتستانتية والكاثوليكية والإسلام (العربي على الخصوص) تُساندُ الولايات المتحدة في صراعها مع الاتحاد السوفياتي، ومن حرب النجوم وإلى قوة الإيمان والحرية!

ومُضياً مع المُقاربة التاريخية والجيواستراتيجية للعلاقات مع الولايات المتحدة؛ فإنه بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وحلف وارسو في مطلع التسعينات من القرن الماضي وإلى أواخر العام 2009م، بزغت حقبة الهيمنة الأميركية في العالم، وفي منطقة الشرق الأوسط على الخصوص، والتي بدأت كما سبق القول بالحرب الأولى على العراق، وبلغت ذروتها التي لم تُغادرْها في الحرب الثانيةِ على العراق، واندلاع الحرب المستمرة على ما تسميه الإرهاب الإسلامي، الغالب على قَسَماته القاعدة أو السلفية الجهادية ذات القيادة العربية.

ولأنّ التاريخ أو الجيواستراتيجي لا- يُفَسِّرُ كلَّ شيء، فلنمض بإيجازٍ إلى المُقاربتين الأخريين للعلاقات، ولنبدأ باللحظات أو المحطّات الفاصلة. هناك قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين عام 1948م. وفي الإدراك العربي وقتَها فإنّ الولايات المتحدة لا تتحمل المسؤولية الرئيسة عن قيامها في قلب المشرق العربي، وازداد هذا الانطباعُ إيجاباً في حرب عام 1956م على مصر، وهي الحرب التي شنّتها بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، فقد تدخَّل السوفيات والأمريكان -رغم تصارُعهما- لإيقاف الهجوم الثلاثي على مصر، وسحْب الجيوش. ثم كانت المحطّة الفاصلة الثالثة وقد تجلّت في حربي عام 1967م وعام 1973م؛ إذ دخلت في الإدراك العربي للمرة الأولى مقولةُ أنّ الولايات المتحدة لا تقفُ على الحياد، ولا تسعى حقاً للتسْوية العادلة للمشكلة الأكبر في نظر العرب، عندما يتعلّق الأمر بإسرائيل. بيد أنّ هذه المحطة فاصلةٌ لسببٍ آخَرَ أيضاً، فحتى عام 1973م كانت الجيوشُ العربيةُ الرسمية هي التي تتولى الصراع مع إسرائيل؛ أمّا بعد ذلك فقد حيَّدتْ الجيوشُ العربيةُ نفسَها، وتسلّمت زمامَ الكفاح -وبقرارٍ من الجامعة العربية- الحركاتُ الثورية الفلسطينية فالعربية والإسلامية، وما يزال الأمر على هذا النحو حتى اليوم. وقد دفع ذلك الجمهورالعربي باتجاه تلك الحركات، وأثّر على شرعية الأنظمة واحترامها في نظر الجمهور. واستقرّ في الوعي أنّ الحلَّ العادل للقضية الفلسطينية لا يأتي إلّا من تلك الحركات، بعد أن أظهرت دولُ النظام العربي عَجْزَها، وأعرضَ النظامُ الدوليُّ بزعامة الولاياتِ المتحدة عن تنفيذ القرارات الدولية المتعلقة بالقضية الفلسطينية. أمّا المحطّات الفاصلةُ الباقية والتي أثّرت سلباً على الإدراك العربي للولايات المتحدة فهي معروفة ومن ضمنها الحربان على العراق، والأولوية المُعْطاة للحرب على ما تسميه الإرهاب. وهنا

يتلاقى التاريخي والجيواستراتيجي بالمقاربة التي تعتمدُ المحطات أواللحظات الفاصلة، ففي حقبة الحرب الباردة كانتِ الأولوية لمصارعة الشيوعية، وكانت إسرائيل قطباً فيها، وفي حقبة الهيمنة صارتِ الأولوية لمصارعة ما تطلق عليه الإرهاب، وصار أَمْنُ إسرائيل خلالها جزءًا من أمْن الغرب والولايات المتحدة. وصار الإسلام -وليس العرب فقط- مجالاً للتشكيك والهجوم.

بعد هذا كُلِّه، هل بقيت هناك حاجة لتجربة المقاربة الثالثة، التي تُعنىٍ بالرؤى والنظراتٍ المتبادَلة؟ نعم، هناك فائدةٌ من وراء التأمُّل الثالث هذا؛ فباستثناء قلّة -وإن تكن قوية ومؤثّرة- ما يزال كثيرون من مثقّفي العرب ومن الجمهور يفصلون بين الولايات المتِحدة وبين السياسات الإسرائيلية، وما يزال كثيرون يَرَونَ أنّ الديمقراطية الأميركية ذات أوْجُهٍ متعددةٍ وليست ذات وجهٍ واحد، وأنه لا يجوزُ اختزالُ الولايات المتحدة -بشعبها وحرياتها ودورها في حاضر العالم ومستقبله- في مجرَّد أداةٍ للسطوة الإسرائيلية في منطقتنا. والشاهدُ على ذلك ما قوبلت به مبادرات الرئيس جيمي كارتر لحلّ النزاع العربي/الإسرائيلي، والتفاؤل الذي حَفَّ بمؤتمر مدريد، والاستبشار الذي قوبلتْ به خطاباتُ الرئيس أوباما ومبادراتُهُ في مطلع عهده؛ وبخاصةٍ خطابُهُ في جامعة القاهرة.

II

ما كتب المثقفون وأساتذة العلوم السياسية العرب بحوثاً ودراساتٍ ذات قيمةٍ باقيةٍ عن المجتمع الأميركي وعن الدولة الأميركية والديمقراطية الأميركية، وكما سبق القول؛ فإنّ الكتابات عن الولايات المتِحدة كانت دائماً بوصفها القوة العُظمى، وعن تأثير سياساتها في المنطقة العربية وفي العالم، وهكذا فقد تركّزت الكتابات العربية والمترجمة إلى العربية في حقبة الحرب الباردة الطويلة على الإمبريالية الأميركية. وفي الحقبة التي تلتْ تركّزت الكتابات العربية والمترجمة إليها على العولمة، وعلى الهيمنة الأميركية من خلال العولمة. أمّا كُتَّاب ومترجمو الستينات والسبعينات فقد كانوا غالباً من الشيوعيين أو اليساريين أو القوميين العرب، وأمّا كُتَّاب العقدين الماضيَين فهم في الغالب من اليساريين القُدامى أو من الإسلاميين.

إنّ هذا لا- يعني أنّ المعلوماتِ الأساسية عن الدولة الاتحادية الأميركية وعن النظام الأميركي ما كانت مُتوافرةً للقارئ العربي العادي؛ بل كان ذلك كُلُّهُ موجوداً في الكتب الأكاديمية بكليات الحقوق والعلوم السياسية، وفي بعض ما تُرجِمَ عن الفرنسية وعن الإنجليزية من مؤلَّفات الأوروبيين. ومما له دلالتُهُ أنّ كتاب دي توكفيل القديم عن الديمقراطية الأميركية ما تُرجم إلاّ قبل ثلاث سنوات؛ في حين تُرجمتْ كتاباتُ تشومسكي منذ الثمانينات من القرنِ الماضي، وقد تُرجم كتاب Negri «الإمبراطورية» أكثر من مرة ولقي انتشاراً واسعاً رغم الاختلاف على تفسيره. إنّ اللافت للانتباه أنّ التعامُل مع الأمبرياليتين الفرنسية والبريطانية من جانب المثقفين والحقوقيين والمؤرّخين اختلف إلى حدٍ كبير؛ ففي العربية مؤلّفاتٌ وترجماتٌ كثيرةٌ عن الدولتين والثقافتين على امتداد القرن

العشرين، وهناك بالطبع كتبٌ إدانية كثيرةَ ضد السياساتِ الاستعمارية للبريطانيين والفرنسيين والإيطاليين؛ لكنْ -وكما سبق القول- فإنّ هناك مؤلَّفاتٍ أكاديمية وأدبية وشعبية عن الثقافات الأوروبية لقيت وتلقى انتشاراً واهتماماً حتى اليوم. فلماذا هذا الاختلاف في التعامُل مع أوروبا من جهة، ومع الولايات المتحدة من جهةٍ أخرى؟ ربما كان السبب الأهمّ هذا الدخول السريع والصاعق للولايات المتحدة إلى المنطقة العربية والعالم الإسلامي بعد الحرب الثانية، بحيث نُسيَت العهودُ الاستعمارية للأوروبيين إلى حدٍّ ما، ثم إنّ المثقّفين الذين قدَّموا عوالم الثقافة والسياسة الحديثة إلى القارئ العربي في الستينات من القرن الماضي كانوا من اليساريين ذوي الثقافة الأوروبية، ويُضافُ لذلك أنّ البُنى السياسية وحتّى العسكرية للدول العربية الحديثة هي في الأصل بُنىً أوروبية. وأخيراً فإنّ المؤسسات الثقافية البريطانية والفرنسية بذلت جهوداً أكبر بكثيرٍ من المؤسَّسات الأميركية -فيما بين الخمسينات والثمانينات من القرن الماضي- في نشر الثقافة السياسية الأوروبية.

لقد اختلف الوضْعُ في العقد الأخير من السنين إلى حدٍّ ما؛ لكنْ ليس من طريق التأليف؛ بل من طريق الترجمة لمؤلفات عن الولايات المتحدة ولمؤلفين أميركيين في الفلسفة والسوسيولوجيا وتيارات ما بعد الحداثة، والعلوم الإنسانية، والشأن السياسي. لكنْ قبل الانصراف لقراءة الإدراكاتِ العربية الأخيرة للنظام الأميركي، ولعلائق الدولة بالمجتمع هناك، والدين بالدولة؛ أودُّ لَفْت الانتباه بشكلٍ سريعٍ إلى كيفية تأثير الحضور الأميركي الطاغي في المنطقة العربية على الاختزالية التي نالت من فهم العرب المُعاصرين للولايات المتحدة ثقافة ومجتمعاً ونظاماً؛ ففي مكتبتي ثلاث ترجمات لكتاب فرنسيس فوكوياما: «نهاية التاريخ»، وخمس ترجمات لمقالة وكتاب صامويل هنتنغتون: صدام الحضارات. وكما هو معروفٌ؛ فإنّ كلا الكتابين صدر بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، والحرب الأولى على العراق، وكتاب فوكوياما يبشّر بالانتصار النهائي للديمقراطية الليبرالية، في حين تُبشّر مقالة هنتنغتون ثم كتابه بتغير طبائع الصراعات، والصدام الحاصل والقادم مع الإسلام «الذي يملكُ تخوماً أو حدوداً دموية». لقد كُتبت مئاتُ المقالات، وعشرات الكتب بالعربية، في نقد أو نقض أُطروحتي فوكوياما وهنتنغتون، واللتينِ اعتُبرتا الوجهَ الجديد للهيمنة الأميركية والعربية، أمّا كتاب فوكوياما فقد أثار حفيظة اليساريين والقوميين على الخصوص- وأمّا أُطروحةُ هنتنغتون فقد أثارت حفيظة الإسلاميين الجُدُد. وعندما تزايد تبادُلُ الضربات بين الولاياتِ المتحدة والقاعدة بعد عام 1998م نُسيَ كتابُ فوكوياما، أمّا كتابُ هنتنغتون فقد ظلّ يُذكَرُ في بداية كلّ حديثٍ عن مسائل الحرب العادلة، والحرب على الإرهاب، والمحافظين الجدد، والإنجيليين الجُدُد، والإسلام فوبيا. وملخَّصُ الأمر أنّ جمهرةً مؤثِّرةً من الإسلاميين، وكُتّاب الأعمدة في الصحف، والمتناقشين على الإنترنت، اعتبروا طوال التسعينات من القرن الماضي، كُلّاً من فوكوياما وهنتنغتون الممثّلين الرئيسين للثقافة السياسية في الولايات المتحدة، وفي العالم الغربي.

إنّ هذا الانطباعَ لدى العرب المهتمين بالشأن العامّ ترك تأثيراتٍ عميقةً على الوعي

والفهم للدولة الأميركية، وللعلائق بين الدولة والمجتمع فيها، والدولة والدين، والنظرة الأميركية إلى العرب والإسلام والمسلمين، فقد لفت انتباه الجمهور العربي الاصطفافُ الشعبيُّ الأميركي وراء الرئيس جورج بوش عشية إعداده للحرب على العراق عام 2002/2003م. وعندما لاحظ كاتبٌ ليبرالي أنّ الرئيس بوش هو رئيسٌ مُنتَخَبٌ، ويستطيع اجتذاب الجمهور والكونغرس بسبب هجوم القاعدة على الولايات المتحدة عام 2001م؛ سارع كثيرون للردّ عليه بأنّ البريطانيين والفرنسيين والإيطاليين والألمان يملكون أيضاً سُلُطاتٍ منتخبة، وقد تعرضوا للإرهاب؛ لكنّ التظاهُرات المليونية تملأ الشوارع في أوروبا احتجاجاً على الحرب، دون أن يحدث شيء مُماثلٌ في الولايات المتحدة لا في الشارع ولا- في الكونغرس. وللمرة الأولى ظهرت مقالاتٌ في الصحف اليومية عن قوة الدولة والنظام في أمريكا، وعن التلاصُق بين المجتمع والدولة، وعن التفاف المجتمع من حول الرئيس عندما تكونُ البلادُ في حالة حرب؛ لكنّ الاستغرابَ لم ينقضِ حتّى اليوم؛ وبخاصةٍ أنّ مجلس العموم البريطاني عقد جلساتٍ للتحقيق في أسباب دخول بريطانيا الحرب إلى جانب الولايات المتحدة، وما حدث شيء مُماثل في الولايات المتحدة، وإنما جُلُّ ما حدث أنّ الكونغرس يحقّق في أسباب التقصير والخسائر والإنفاق الكبير في حرب العراق كما في أفغانستان، وما سألت جهاتٌ مؤثّرة: لماذا مضينا إلى الحرب على العراق في الأساس؟! وقد تفرع لدى عددٍ كبيرٍ من المثقفين العرب على هذه الواقعة سؤالان؛ يتصل **أولُهُما** بطبيعة العلاقة بين الجمهور من جهة، والقرار السياسي من جهةٍ أُخرى ضمن الدولة الأميركية، وبخاصةٍ أنّ أحداً من المهتمين بالشأن العام -باستثناء غُلاة القوميين والإسلاميين- لا- يُنكر وجودَ ديمقراطيةٍ حقيقيةٍ في الدولة الأميركية. **وثاني السؤالين:** كيف تستطيع الدولة الأميركية شنَّ حربٍ على دولةٍ أُخرى ما اعتدتْ عليها، ولا أضرّت بمصالحها المباشرة، كما أنّ مجلس الأمن الدولي ما كلَّفها بذلك أو سَمَح به، وقد ترتّب على تلك الحرب مقتل زُهاء المليون عراقي، وتهجير حوالي الأربعة ملايين، فمن يتحمل المسؤولية عن ذلك؟!

وهناك موضوعٌ آخَرُ وثيقُ الصلة بما تحدثْتُ عنه، وهو يتُّصل بالنقاشات الكثيرة التي دارت في أوساط المثقفين العرب والمسلمين على أثر هجوم «القاعدة» على الولايات المتحدة، وهو موضوعُ «الحرب العادلة»، والتي تجلّتْ فيها سمي «الحرب على الإرهاب». وقد تناقشنا كثيراً مع الزملاء في معهد القيم الأميركية (Institute of American Values) منذ بيانهم الشهير أواخر العام 2001م: من أجل ماذا نحارب؟ والمعروف أنّ لهذا الموضوع خلفياتٍ وأصولاً- في الثقافة المسيحية والأميركية والإسلامية. ولذلك -وإسهاماً في تطوير النقاش وتوضيح المفاهيم- طلبتُ من بعض تلامذتي ترجمة كتاب Kelsey عن مقولة الحرب العادلة، وقد حصل، ونحن بصدد ترجمة كتابٍ آخر (Walzer). وقد فهم مثقفون عربٌ كثيرون أنّ «الحرب العادلة» هي الحربُ الدفاعية؛ لكنْ ما هي حدودُ الدفاع، أخْذاً في الاعتبار ما يفهمُهُ المسلمون من «الجهاد» باعتباره حرباً عادلة أو دفاعية أيضاً، فالقاعدةُ معتدية ولا شكّ بهذين المفهومين

أو الاعتبارين؛ لكنْ ماذا عن العراق، وماذا عن فلسطين؟!

إنما وفي عودةٍ إلى الإدراكات العربية للدولة الأميركية وللدور الأميركي في العالم (بما في ذلك الحرب) من أجل نشر القيم الديمقراطية، في هذا السياق طُرح موضوعٌ مفادُهُ أنّ الولاياتِ المحدة -ومنذ ظهور دستورها- تملكُ في نظر نفسها وشعبها رسالة (Mission) تُجاه كُلِّ الآخرين، وقد أثار ذلك تساؤلاتٍ كبرى قديمة وجديدة لدى العرب والمسلمين، فنحن نذكر جميعاً دعاوى الرسالة التحضيرية التي حملها البريطانيون والفرنسيون والإيطاليون منذ أواسط القرن التاسع عشر، خلال احتلالهم لقارتي آسيا وإفريقيا، وقبل ذلك للقارة الأميركية، وفي الأعوام الأخيرة -كما هو معروف- فإنّ جهاتٍ ليبرالية عربية استظلّتْ بالحملة الأميركية لنشر الديمقراطية ونُصرة حقوق الإنسان وسط غياب الحكم الرشيد، وانتشار الاستبداد، في أنحاء واسعة من العالمين العربي والإسلامي، إنما كيف يمكنُ لوطنيٍّ عربيٍّ أن يستظل بمثل هذه الدعوة للإصلاح في بلاده، وهو يرى ما يحدث باسم هذه الرسالة في أفغانستان والعراق وفلسطين؟!

على أنه إذا كان مفهومُ الـMission يثير هذه التحفظات لدى مثقفي الدولة المدنية في العالم العربي؛ فإنه يملك ارتباطات وتداعياتConnotations خطيرة وهائلة لدى مثقفي الإحياء الإسلامي؛ إذ إنّ المفهومَ يرتبطُ لديهم بالتبشير الديني، والذي انتشر مع المستعمرين في آسيا وإفريقيا خلال القرنين الماضيين، ولسوء الحظّ (وأنّ الأمر ليس مُصادفة) فإنّ هذا التلوين الديني لمفهوم الرسالة الأميركية في العالم ارتبط في عهدي الرئيسين ريغان وبوشٍ الابن بمن صاروا يُعرفون بالإنجيليين الجُدُد، والذين تملك بعض فئاتهم رؤىً عدوانية تُجاه الإسلام والمسلمين، وأذكر أنّ الرئيس بوش ذكر في العام 2004م شيئاً عن الحملة من أجل الخير أو الفضيلة، وسمَّى الأمرCrusade فما بقي أحدٌ في العالم العربي إلاّ وعلّق على ذلك تعليقاتٍ سلبية؛ لأنّ المفهومَ يرتبط في الذاكرة العربية بالحروب الصليبية في مطالع العصور الوسطى الأوروبية، والتي احتلّ خلالها الفرسان -الذين يضعون الصليبَ على صدورهم ويريدون استنقاذ قبر المسيح- كلّ المناطق الساحلية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، أو ما يُعرف اليومَ بالشرق الأوسط!

إنما الأهمُّ في النقاش الذي نحن بصدده ما أثارته تلك الظروف من وجوه سوء الفهم لعلاقة الدين بالدولة في الولايات المتحدة، وبخاصةٍ أنه انتشرت في العشرين سنة الأخيرة مقولة الحضارة اليهودية المسيحية، وهكذا اجتمعت عدة مصادفات سيئة، زادت من حجم وتداعيات سوء الفهم المؤدي غالباً إلى السُخْط أو سوء التصرف: انتشار مقولة الحضارة اليهودية المسيحية، وصراع الحضارات، وهجوم القاعدة على الولايات المتحدة، وغزو أفغانستان والعراق، وتفاقُم الاستيطان والعنف في فلسطين وبخاصةٍ في القدس، وفشل الولايات المتحدة في إعادة الإسرائيليين والفلسطينيين إلى طاولة المفاوضات، وانتشار الإسلام فوبيا في أوروبا والولايات المتحدة.

بمبادرةٍ من معهد القيم الأميركية التقينا عام 2003م بمالطا، وكنا حوالي عشرين من المثقفين والمهتمين بالشأن العامّ من العرب والأميركيين، وخلال نقاشٍ محتدمٍ -استمرّ على مدى ثلاثة أيام- توصلنا إلى جوامع كبرى ومشتركة، وعلى أساسٍ منها التقينا مرتين بعد ذلك بأسبانيا والدار البيضاء، ولا أريدُ هنا الحديث عن Malta Forum؛ وإنما أريدُ هنا الحديث عن نقطةٍ برزت خلال ذاك النقاش الأول؛ كان الزملاء الأميركيون يتحدثون كثيراً عن التشابُه بين المسيحية والإسلام في العلاقة الودودة القائمة بين الدين والدولة، ونموذجُهُم في ذلك التجربة الأميركية، وكنا نحن العرب المشاركين -وأكثرنا من المتدينين- نتحدث عن الدولة المدنية، وكان زملاؤنا الأميركيون يأخذونَ على الأُمَم المتحدة ضعفها وعدمَ جدواها، وكنا نحن لا نريد شيئاً غير الاحتكام إلى الأمم المتحدة والقانون الدولي، أو تحكمَ العالم شريعةُ الغاب! وهكذا فقد كان كلٌّ منا يتحدث عمّا يفتقرُ إليه أو يرغبُه.

ما قامت لدينا في العالم العربي الدولة/الأمة التي كان المثقفون والسياسيون القوميون يرغبون في قيامها قبل خمسة أو ستة عقود، وعلى النمط الأوروبي أو الأميركي؛ وإنما قامت أنظمةٌ قُطرية، حملت بعد متغيرات الخمسينات ثلاث دعاوى أو رسالات: الوحدة العربية، والتنمية، وتحرير فلسطين. وما تحقّق شيء من ذلك؛ لكنّ الأنظمة بقيت حتى اليوم، شأنَ مومياء توت عنخ آمون، الذي كان أضعف فراعنة مصر القديمة جسداً، وأكثرهم بقاءً وخلوداً. الأنظمة باقيةٌ لا تتغير ولا تسقط؛ لكنّ المجتمعات هي التي تتشقّق وتنقسمُ إثنياً أو دينياً أو جهوياً، ووسط هذا الرُكام من الحروب والانقساماتِ تحت وطأة التعملُق الإسرائيلي، والتدخلات الدولية، صعدت الظاهرةُ الإسلامية الثوريةُ في مواجهة الأنظمة، وفي مواجهة إسرائيلِ، والتدخلات الأجنبية. ما عادت الأنظمة تحمل أيَّ رسالة؛ بينما يحملُ الإسلاميون الرسائل كُلَّها: التحرير، والدولة الإسلامية، وتوحيد الأمة. -ولدينا اليومَ بل ومنذ أكثر من عقدين- أكثر من نموذج للإسلامية الجديدةِ في إيران والسودان والصومال وغزّة، فالرسائل كما تلاحظون عديدة؛ لكنّ الوعودَ والآمال ضئيلة أو أنها غير موجودة. ومن بين الـ 350 مليونا الذين تُشكل العربية لغتهم الأمّ، هناك 50% أو أكثر ممن سنُّهم تحت الثلاثين، أمّا الشبان الذين أُتيحت لهم فُرصة التعليم بطرائق مختلفة فإنهم يُهاجرون إلى أمريكا أو أوروبا، أو يجدون وظائفَ في الشركات الكبرى العاملة في منطقة الخليج والدولِ العربية الأخرى، ورغم وجوه الخَلل السائدة على مدى العقود الماضية؛ فقد ظهرت ثقافةٌ عربيةٌ حديثةٌ، ولدينا في العقدين الأخيرين ازدهارٌ ثقافيٌّ نسْبيٌّ في الرواية والترجمة عن اللغات الحية وإليها، ووسائل الإعلام المرئية والمكتوبة ووسائل الاتصال المُعاصرة؛ إنما بسبب عدم الانتظام أو النجاح في التجربة السياسية والتنموية العربية، وغياب المجال العام أو ضآلة حراكه، ليست هناك ثقافةٌ سياسيةٌ أو فعاليةٌ وتأثيرٌ مُتبادَلٌ بين الثقافي والسياسي كما حدث ويحدث في المجتمعات النامية والصاعدة في آسيا فضلاً عن أمريكا وأوروبا.

كان رئيس وزراء لبنان الأسبق رفيق الحريري يسأل جُلَساءَهُ في الأزمات السياسية التي

يعـاني مِنهـا لبنـان: لمـاذا يُنشـئُ النـاسُ دولاً- وأنظمـة؟ ثـم يُجيبُ نفسَه: يُنشـئُ الناسُ دولاً وأنظمـة لتحسـين حياة الناس، وصَون المصالـح الوطنية والقومية، ومن الواضح أنّ هذين الهدفين لم يتحقّقا حتى الآن بسـبب ضـعف الأنظمة السياسية واستبدادها، وبسبب استمرار الاحتلال الإسـرائيلي للأراضـي العربيـة في فلسـطين وسـوريـة ولبنان، والـدفاع عن هـذا الاحتلال بالمزيـد مـن الحروب، وبسـببِ الوجـود الأميركي العسـكري في سـائر أنحـاء المنطقة العربية بذرائع مختلفة، وأخيراً بسبب صعود الإسلام السياسي في صورة حركاتٍ ثورية احتجاجية صارت إيرانُ راعيةً لها في سياق صراعها مع الولايات المتحدة.

* * *

لا يجوزُ اختزالُ الولايات المتحدة في المنطقة العربية على الخصوص في قوة عسكرها وحروبه، وضـمان التفوق الإسـرائيلي؛ لكنّ هذا هو ما حدث ومن الجانبين في العقد الأول من القرن الحادي والعشـرين، فالدولـةُ الأميركيـةُ ما فعلت خلال العقد الماضـي غير هذين الأمرين، وهي تُريـدُ الآـن أن تُضـيفَ إلى فضـائلهـا حمايتَنا من إيران! ونحن من جانبنا - أعني المثقفين العرب- مـا فعلنـا شـيئاً غير الاحتجـاج على العدوانيـة الأميركيـة، وتصدير شبابنا في الوقت نفسِه إلى أحضان الحُلُم الأميركي! بيد أنّ الولايات المتحدة -التي تحتضن نصف حاضـر العـالم ومسـتقبله- تملـك -بقواهـا وإمكانياتها الثقافيـة والاجتماعية والعلمية والسياسـيةـ- أن تُعطي وجهـاً آخَر للحُلُم الأميركي وللرسالـة الأميركيـة. علينـا أنّ نُقرَّ بأنّ العقد الماضـي ما كان عقداً جيداً على علاقة أميركا بالعالم، وعلاقتها بالعرب والمسلمين، وعلاقـة العرب والمسلمين بها؛ فقد بدأ ذلك العقد بهجوم القاعدة على الولايات المتحـدة، وانتهى بالأزمـة الماليـة العالميـة، وبين الحـدثين نشـبت عـدة حروبٍ وأزمـات أكثرهـا في منطقتنـا، وهنـاك تحولٌ في الوضع الآـن، ونسـتطيع -نحن المثقفين- بعملنـا معاً أن نحـدث فرقاً.

قبل أيام كنتُ أقرأُ كتاب أمارتيا سـنAmartia Sen الجديد: The Idea of Justice، وهو المحاولةُ الثلاثون أو أكثر لمناقشة كتاب الفيلسوف الأميركي :Theory of Justice John Rawls الصـادر عام 1971م. نعم، إنّ مـا يَحتـاج إليـه العـالم -ونحـن منه- ومن الولايات المتحـدة بالـذات، العودةُ للإقبال على تلك القيمـة الدينيـة والإنسانيـة الخالدة، التي أعادت تشكيلها ثلاثـةُ قرونٍ من التنوير والتقدم الإنسـاني: قيمـة العدالـة، باعتبارها حفظاً للحقـوق الأساسـية، وحُكمـاً للقـانون بالـداخل الـوطني، وباعتبارهـا Fairness ، بحسب Rawls، في المجال الوطني والعالمي. وأعتقـد -وأنا هنا بمركز الرئيس كارتر الذي عمل على مدى العقود الماضـية من أجل المصالحـة والعدالة على المستوى العالمي- أننا -نحنِ المثقفين العرب- والأميركيين نسـتطيع -بالتشارُك والتضامُن والصـدق- أن نُحْدِثَ الفرق الذي تحدثتُ عنه باتجاه إحقاق العدالة، وصُنْع السلام.